فصل[1]

ثمَّ تأمَّل جسمَ الطَّائر وخِلقَته؛ فإنه حين قُدِّر بأن يكون طائرًا في الجوِّ خُفِّفَ جسمُه، وأُدْمِجَ خَلقُه، واقتُصِرَ به من القوائم الأربع علىٰ اثنتين، ومن الأصابع الخمس علىٰ أربع، ومن مخرج البول والزِّبل علىٰ واحدٍ يجمعُهما جميعًا.

ثمَّ خُلِقَ ذا جُؤْجُؤٍ[2] محدودٍ[3] ليسهُل عليه اختراقُ الهواء كيف توجَّه فيه، كما يُجْعَلُ صدرُ السَّفينة بهذه الهيئة ليشقَّ الماءَ بسرعةٍ ويَنْفُذ فيه، وجُعِلَت في جناحيه وذنبه رِيشاتٌ طِوالٌ مِتانٌ لينهض بها للطَّيران، وكُسِيَ جسمُه كلُّه الرِّيشَ ليتداخَله الهواءُ فيحمله.

ولمَّا قُدِّر أن كان[4] طعامُه اللَّحمَ والحَبَّ، يبلعُه بلعًا بلا مضغ، نُقِصَ من خَلْق الأسنان، وخُلِق له مِنقارٌ صُلبٌ يتناولُ به طعامه، فلا يَنْسَحِجُ[5] مِنْ لَقْطِ الحبِّ ولا يَنْقَصِفُ من نهش اللحم[6].

ولمَّا عَدِم الأسنانَ وصار يزدَرِدُ الحَبَّ صحيحًا واللَّحمَ غَرِيضًا[7]

---

(١) «الدلائل والاعتبار» (٣٧)، «توحيد المفضل» (٦٧ – ٦٨).

(٢) وهو الصَّدر. وقيل: عظامُه. وقيل: مجتَمعُ رؤوس عظامه. «اللسان» (جأجأ).

(٣) (ض): «محدد».

(٤) (ح، ض، ر): «يكون». وسقطت من (ن).

(٥) أي: يتقشَّر. «اللسان» (سحج).

(٦) (ق): «نهس اللحم». والنهس: أخذُ اللحم بمقدَّم الأسنان، والنهش: الأخذ بجميعها. وقيل فيهما غير ذلك. «اللسان» (نهش، نهس).

(٧) (ح، ت، ن): «عريضًا». والغريض من اللحم: الطَّري. «اللسان».

أُعِين بفضل حرارةٍ في الجوف تطحنُ الحَبَّ وتطبخُ اللَّحم، فاستغنىٰ عن المضغ.

والذي يدلُّك علىٰ قوَّة الحرارة التي أُعِين بها أنك ترىٰ عَجَمَ الزَّبيب وأمثاله يخرجُ من بطن الإنسان صحيحًا، وينطحنُ[1] في جوف الطَّائر حتىٰ لا يُرىٰ له أثر.

ثمَّ ٱقتضت الحكمةُ أن جُعِل يبيض بيضًا ولا يلدُ ولادةً؛ لئلَّا يثقُل عن[2] الطَّيران؛ فإنه لو كان مما يحملُ ويمكثُ حملُه في جوفه حتىٰ يَستحكِمَ ويكمُل لأثقَله وعاقَه عن النُّهوض والطَّيران.

وتأمَّل الحكمةَ في كون الطَّائر المُرسَل السَّابح[3] في الجوِّ يُلْهَمُ صبرَ نفسِه أسبوعًا أو أسبوعين باختياره، قاعدًا علىٰ بيضه، حاضنًا له، ويحتملُ مشقَّة الحبس، ثمَّ إذا خرجَ فِراخُه تحمَّل مشقَّة الكسب و جمع الحبِّ في حَوْصلته، ثمَّ يَزُقُّه فراخَه[4]، وليس بذي رويَّةٍ ولا فكرةٍ[5] في عاقبة أمره، ولا يؤمِّلُ في فِراخه ما يؤمِّلُ الإنسانُ في ولده من العون[6] والرِّفد وبقاء الذِّكر.

---

(١) (ح، ن): «وينطبخ».

(٢) (ت): «في».

(٣) (ض): «السائح».

(٤) زقَّ الطائرُ الفَرخَ: أطعمَه بفمه. (ر): «فيغذو به فراخه». وفي (ض): «ثم يقبل عليه فيزقه الريحَ؛ لتتسع حوصلته للغذاء، ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به».

(٥) (ق): «تفكر». (ت): «يفكر».

(٦) (ر، ض): «العز».

فهذا مِنْ فعله يشهدُ بأنه معطوفٌ علىٰ فِراخه لعلَّةٍ لا يعلمُها هو ولا يفكِّرُ فيها مِنْ دوام النَّسل وبقائه.

فصل[1]

ثمَّ تأمَّل خِلْقَة البيضة وما فيها من المُخِّ الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق، فبعضُه ينشأ منه الفَرخ، وبعضه يغتذي منه[2] إلىٰ أن يخرجَ من البيضة، وما في ذلك من الحكمة.

فإنه لمَّا كان نشوءُ الفَرخ في تلك القشرة[3] المستحصِفة[4] التي لا نفاذَ فيها للواصِل[5] مِن خارج، جعَل معه في جوف البيضة[6] من الغذاء ما يكتفي به إلىٰ خروجه.

فصل[7]

وتأمَّل الحكمةَ في حَوْصَلة الطَّائر[8] وما قُدِّرَت له؛ فإنَّ مسلك

---

(1) «الدلائل والاعتبار» (٣٨)، «توحيد المفضل» (٦٩).

(2) (ت، ح، ن): «يتغذى منه».

(3) (ت، ح، ق): «البشرة». وأهملت في (د).

(4) (د): «المتحفضة». (ن): «المحتفظة». (ق، ت): «المنخفضة». (ض): «المستحفظة». وكله تحريف. والمثبت من (ر).

(5) (ح): «للأصل». (ن): «لأصل».

(6) (ض): «التي لا مساغ لشيء إليها جعل معه في جوفها».

(7) «الدلائل والاعتبار» (٣٨)، «توحيد المفضل» (٦٩).

(8) وهي انتفاخٌ في المريء يُختَزنُ فيه الغذاء قبل وصوله إلىٰ المعدة. «المعجم الوسيط».

الطَّعام[1] إلىٰ القانِصة[2] ضيِّقٌ لا ينفُذ فيه الطَّعامُ إلا قليلًا، فلو كان الطَّائرُ لا يلتقطُ حبَّةً ثانيةً حتىٰ تصل الأولىٰ إلىٰ جوفه لطال ذلك عليه، فمتىٰ كان يستوفي طعامَه؟! وإنما يختلسُه ٱختلاسًا؛ لشدَّة الحذر، فجُعِلت له الحوصلةُ كالمِخلاة المعلَّقة أمامه ليُوعِيَ فيها ما ٱزدَرَدَ[3] من الطُّعم بسرعة، ثمَّ ينفُذ إلىٰ القانِصة علىٰ مهَل.

وفي الحوصلة أيضًا خصلةٌ أخرىٰ؛ فإنَّ من الطَّير ما يحتاجُ إلىٰ أن يَزُقَّ فراخَه[4]، فيكون ردُّه الطُّعمَ[5] مِنْ قُربٍ ليسهُل عليه.

فصل[6]

ثمَّ تأمَّل هذه الألوانَ والأصباغَ والوَشْيَ التي تراها في كثيرٍ من الطير، كالطاووس والدُّرَّاج وغيرهما، التي لو خُطَّت بدقيق الأقلام ووُشِيَت بالأيدي لم يكن هذا.

فمِن أين في الطبيعة المجرَّدة هذا التشكيلُ والتخطيطُ والتلوينُ والصَّبغُ[7] العجيبُ البسيطُ والمركَّب، الذي لو ٱجتمعت الخليقةُ علىٰ أن

---

(١) (ح، ن): «فإن في مسلك الطعام».

(٢) وهي جزءٌ عضليٌّ من المعدة يتمُّ فيه طحنُ الغذاء. «المعجم الوسيط». وتحرفت في (ح، ن) إلىٰ: «القابضة» في الموضعين.

(٣) (ض): «أدرك».

(٤) تقدَّم تفسير ذلك قريبًا.

(٥) (ح، ن): «رد الطعم». (ض): «رده للطعم».

(٦) «الدلائل والاعتبار» (٣٩)، «توحيد المفضل» (٧٠).

(٧) (ق): «والصنع».

يحاكوهُ لتعذَّر عليهم؟!

فتأمَّل ريشَ الطاووس كيف هو، فإنك تراه كنَسْج الثَّوب الرفيع من خيوطٍ رِفاعٍ جدًّا[١]، قد أُلِّف بعضُها إلىٰ بعضٍ كتأليف الخيط إلىٰ الخيط، بل الشَّعرة إلىٰ الشَّعرة، ثمَّ ترىٰ النَّسجَ إذا مَدَدتَه ينفتحُ قليلًا قليلًا ولا ينشقُّ؛ ليتداخَله الهواءُ، فيُقِلُّ[٢] الطَّائر إذا طار، فترىٰ في وسط الرِّيشة عمودًا غليظًا متينًا[٣] قد نُسِجَ عليه ذلك الثَّوبُ الذي[٤] كهيئة الشَّعر ليُمْسِكه بصلابته؛ وهو القَصَبةُ التي تكونُ في وسط الرِّيشة، وهو مع ذلك أجوفُ؛ ليشتمل علىٰ الهواء، فيحمل الطَّائر.

فأيُّ طبيعةٍ فيها هذه الحكمةُ والخبرةُ واللُّطف؟!

ثمَّ لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون[٥] لكانت من أدلِّ الدَّلائل وأعظم البراهين علىٰ قدرة مبدعها ومنشئها وعلمِه وحكمته، فإنه لم يكن لها ذلك من نفسها، بل إنما هو لها ممَّن خلقها وأبدعها.

فما كذَّبه المعطِّل هو أحدُ البراهين والآيات التي[٦] علىٰ مثلها يزدادُ إيمانُ المؤمنين. وهكذا آياتُ الله يضلُّ بها من يشاء ويهدي من يشاء.

---

(١) (ر، ض): «سلوك دقاق». وهي الخيوط.

(٢) (د، ت، ق): «فيقتل». (ح): «فيثقل». (ن): «فينتقل». والمثبت من (ر، ض)، وهو الصواب، وانظر آخر الفقرة.

(٣) (ت): «منبنيا». (ح، ن): «مبنيا».

(٤) (ح، ن): «التي». وسقطت من (ق).

(٥) (ق، ت): «تقولون».

(٦) «التي» ليست في (ق).